

## البلبل الصغير بين شوقي وخصومه

البلبل الصغير..

هكذا كانوا يسمونه منذ ثلاثين عامًا. وقد ظل خمس سنوات يحمل لقب بلبل.. ثم لقب بلبل صغير.. ثم لقب مطرب الملوك والأمراء.. وأخيرًا تنازل عن جميع هذه الألقاب، واحتفظ منها بلقب واحد، هو لقب الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب!

لمع نجم عبد الوهاب لأول مرة خلال الفترة بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٦، وكان شوقي قد سمعه. فأعجب به. وتحمس له، وأخذ يمهّد له طريق المجد، فلا يمر يوم دون أن يطالع القراء صورته في المجلات الفنية والأدبية مقترنة بكلمة. أو مقال، أو قصيدة في الثغرى بصوته، والإشادة بموسيقاه. وكان شوقي يتراءى من خلال ما تكتبه الصحف عن عبد الوهاب. فقد أعجب بعبد الوهاب، وشغف بصوته حبًا. وكانت المعركة على أشدها بين شوقي وخصومه، وظهر

في ذلك الحين كتاب الديوان للكاتبين الكبيرين العقاد والمازني، وقد تناول هذا الكتاب شعر شوقي وشخصه، وتاريخه وحياته بالهجوم، والنقد، والتجريح. وانقسمت الصحف إلى معسكرين أحدهما يدافع عن شوقي ويهاجم العقاد والمازني. والآخر يهاجم شوقي ويشيد بأدب العقاد والمازني.

وكان أنصار شوقي يتعصبون له ضد خصومه، فكل ما يصدر عن خصومه سخيف حقير مبتذل سواء كان أدباً، أو فناً، أو مذهباً سياسياً. وكان خصومه يتعصبون ضده. فالحسن عنده قبيح عندهم. وما يراه صواباً يرونه خطأ، والبلبل الصغير ليس إلا غراباً!

وأخذ المازني رحمه الله يهاجم عبد الوهاب في جلساته الخاصة. ويقول إن صدر عبد الوهاب ضيق فهو لا يصلح أن يكون مغنياً ولكن يصلح أن يكون مريضاً!

وكان المازني لم يسمع عبد الوهاب بعد. ورأى أحد أصدقاء عبد الوهاب أن يحميه من هجوم المازني عليه. فأقام حفلة في داره دعا إليها المازني والعقاد، وغنى عبد الوهاب في الحفلة، وأبدى العقاد إعجاباه بصوت عبد الوهاب، وقال إنه

لا عيب فيه إلا إعجاب شوق به ! ولما سئل عن رأيه في  
عبد الوهاب قال : صوته قوى عذب جذاب، واستعداده  
الفنى عظيم، وقيل له هل تمنعك خصومتك لشوق من أن  
تقول كلمة عن عبد الوهاب؟

فقال : كلا... وسأنظم قصيدة.

ونظم أبياناً قال فيها :

إيه عبد الوهاب إنك شاد      يطرب السمع والحجا والفؤاد  
قد سمعناك ليلة فعلمنا      كيف يهوى المعذبون السهادا  
ونفينا الرقاد عنا لأنا      قد حلمنا وما غشينا الرقادا  
بارك الله في حياتك للفن      وأبقاك للمحبين زادا...

وكتب المازن يصف الليلة التي غنى فيها عبد الوهاب

فقال :

ومن أمتع ما مر بي في هذه الحياة - التي لا أراها ممتعة  
ولا أحب أن تطول أو تتكرر - ليلة قضيتها بين شراب  
وسماع. فأما الشراب فلعل القارئ أدري به ! وأما السماع فقل  
من شجى به كما شجيت في تلك الليلة.. إى والله وما زلت  
إلى الساعة - كلما خلوت بنفسى - أغمض عيني وأسمع

وأحاول أن أبتعث ذلك الصوت البديع الذى هاجنى إلى ما بى كما لم يهجنى صوت سواه.. وقد أعجب لما يصب في الأذن أين يذهب؟ وربما أثارني هذا العجز عن إحياء صوت أكثر من تصوره في ضمير الفؤاد، وقد أعالى في إكبار هذه الثروة الصوتية وأتمنى لو رزقت شيئاً منها بكل مالى - لو أن لي شيئاً! - ثم أعود فأسخر من نفسى وأضحك من أمنية يستخفنى إلى إنشائها الطرب العارض.

ثم أسخر من سخرى وأقول لنفسى في حدة: أولاً يسر الإسكندر، وقبصر وسليمان أن ينزلوا مثلى عسن نصف ما أحرزوا من مجد لو أنه وسعنى أن أخول كلا منهم ليلة واحدة كهذه الليلة التى نعمت فيها!

كأنى لم أكن أسمع بل أسقى من رحيق الجنان. وكأنه لم يكن غناء مصوغاً من شجى القلوب بل من شعاع العقول..

وهكذا أمتعنا عبد الوهاب بغبطته في ليلة كانت كلها سحراً. وردف بعدها بغير ذى أذن إلى كل نعمة من سواه.. وغير ذى صور إلا إلى فتنة من هوى فنه وشجاه.. ولولا أن يعد ذلك جحوداً ولؤماً لتجاوزت عن ذكر اسمه فإنه أحلى

عندى وأوقع في نفسى أن أجرد غناه من صورته الأدمية على  
حسها النرجسى.. وأن أتصوره أبداً هوى سائجاً، وروحاً  
هائماً، وصوتاً صافياً..

هذا بعض ما كتبه المازن عن عبد الوهاب.

وقد فرح شوق بما نظمه العقاد في عبد الوهاب. وما  
كتبه المازن عن عبد الوهاب.. واعتبر ذلك نصراً شخصياً له  
فقد كان حبه لعبد الوهاب عنيماً جارفاً.

وكان عبد الوهاب عاطفة في قلبه، وفكرة في رأسه،  
ونوراً في عينيه..

ولكن بعض أصدقاء شوق أفهموه أن كتابة المازن والعقاد  
عن عبد الوهاب ستجعله ينضم إليهما، وأفهموه أن بلبه  
الصغير قد بنى له عشاً في قلب المازن وقلب العقاد، واقتنع  
شوق بذلك، وإذا به يسلط بعض الصحف على العقاد  
والمازن لتجامعهما في موضوع عبد الوهاب بالذات.. فكتب  
المرحوم حسين شفيق المصرى مقالاً نقده فيه قصيدة العقاد  
وقال: هل أراد العقاد أن يملح عبد الوهاب أو أراد أن  
ينعمه؟ إنه يقول:

قد سمعناك ليلة فعلمنا كيف يهوى المذبون السهادا  
إذن لم تكن ليلة طرب بل كانت ليلة شقاء. إن عبدالوهاب  
لم يشج الشاعر، ولكن أشقاه، وسامه سوء العذاب!

وكيف يتفق هذا الشقاء والعذاب مع وصف الشاعر  
للمغنى بأنه أطرب السمع والحجا والفؤاد؟  
وكتبت جريدة الكشكول كلمة تحت عنوان «هجاء في  
مدح» قالت فيها:

- سأل أعرابي أحد المغنين ما الغناء؟ فأراد المغنى أن  
يرى الأعرابي كيف يكون الغناء فأخذ يتغنى بأبيات مسن  
الشعر، ويهتز، ويلقى برأسه إلى السوراء. ثم يعتدل، ويتجعد  
وجهه، وتلعب عيناه. فقال له الأعرابي: «والله يا أخى  
ما يفعل بنفسه هكذا عاقل!»

وقد صدق. ولم نر من استملح هذه البشاعة من المغنين  
غير المازنى. فقد كتب فصلا عن المغنى التابعة محمد أفندى  
عبد الوهاب قال فيه إنه إذا تناول العود وأصلحه واستعد  
للضرب عليه يرفع رأسه حتى يكاد يمس به ظهر الكرسى.  
ويرسل طرفه إلى الفضاء.. وتلك أوصاف مفتراة ظنها المازن

عما يحمد من المغنين فوصف بها عبد الوهاب.. وعبد الوهاب  
براء منها!

ثم قالت: «ولا نرى المازني أخزاه الله يصف مغنياً ولكنه  
وصف قرداً، وخيل إليه أنه يمدح وهو يهجو. ولا شأن لنا  
به.

فلينظر عبد الوهاب كيف جزاء من يطرب الحمق  
والجهال فلا يكافئونه إلا بإلحاقه بالقروء».

ولما ظهر الكشكول وفيه هذه الكلمة. أخذ شوقي يبدى  
إعجابه بالكاتب متسائلاً: ياترى من يكون؟ إنه ليس أديباً  
فقط. ولكنه أديب. وموسيقى ويفهم في علم النفس. وكان  
يقول هذه الكلمات على مسمع من عبد الوهاب..

كان كاتب هذه الكلمة هو شوقي نفسه.. وقد نشرها  
غفلاً من الإمضاء!

وقد لمح شوقي في إقصاء عند الوهاب عن العقاد  
والمازني. وظل المازني حائقاً على عبد الوهاب إلى قبيل وفاته  
بستين.

أما العقاد فقد نشر قصيدته عن عبد الوهاب في البلاغ.

ولما تغير رأيه في عبد الوهاب رفض تسجيل القصيدة في أى ديوان من دواوين شعره!

## شوقى وخصومه

في عام ١٩٣٢، رحل شوقى من ضفة الحياة إلى الضفة الأخرى. ضفة الغيب والجهول. وقد كان شوقى شديد الفزع من هذه الرحلة. يتمنى لم يعرف ما وراءها كما لم يكن شيئاً مادياً يراه بعينه، ويلمسه بيده!

فهو يسأل إسماعيل صبرى عن الموت :

قل لى - بسابقة الوداد - أقاتل هوحين ينزل بالفتى أم شافى

ريقول فى رثائه لسعد زغلول :

«عرف الضفة إلا ما تلاها»!

وقد بلغ من فزع شوقى من الموت أنه كان يطمئن إلى الضجة ويجفل من الهدوء. يحب الشوارع الصاخبة، والأنوار الصاخبة، والأصوات الصاخبة. وكان حريصاً على إحاطة اسمه بالضجة والصخب. ضجة الملح، وصخب الشناء. وكان برغم

إيمانه بنفسه، وإدراكه لقيمته الفنية، يتألم من النقد، ويخاف من النقاد. ولقد هاجمه كثيرون من الأدباء والنقاد والكتاب والساسة هجوماً عنيفاً، فلم يرد عليهم بكلمة صريحة. واكتفى بغزهم تلميحا في القصائد التي يقولها في مناسبات لا تمت إلى موضوع نقده بصلة من الصلات..

وعندما أصدر الأستاذان العقاد والمازني كتاب الديوان، وهجما فيه على شوقي هجوماً قوياً جارحاً، انبرى بعض الكتاب للرد عليهما. وكان رحمه الله يغذى هؤلاء الكتاب بأرائه وأفكاره، وكان حريصاً على ألا يظهر معهم في مكان عام حتى لا يقال إنهم دافعوا عنه بإيعاز منه. وحدث في ذلك الوقت أن وصلت إلى مصر أم الحسين والدة الخديو السابق عباس الثاني ومعها رفات ابن عباس. وكان قد مات في سويسرا. ودفن هناك. وبعد مرور بضع سنوات على موته سمح بنقل رفاتة إلى مصر. وكان الملك فؤاد قد أوعز إلى حاشيته أن تعلن غضبه السامى.. على كل من يشارك في استقبال أم الحسين، أو تشييع جنازة حفيدها.

واستقبلها شوقي بقصيدة قال فيها:  
أقبل كالشمس لم تجعل لها موكباً أو تتخذ من حاشرين

أقبل في بحرك الطامى إذا عبث السيف بموج المحتفين  
وكان ينظم القصيدة وهو يرمق خصومه بعين تتميز غيظًا  
فقال :

لا ترومى غير شعرى موكبًا إن شعرى درجات الخالدين  
أب من قيمتك الدهر كما رجع النقد من الشعر الرصين

وحدث أن تألفت لجنة للاحتفال بذكرى الكاتب الصحفي  
الوطني أمين الرافعى، وأقيمت الحفلة فى مسرح الأوبرا. وكان  
أعضاء اللجنة مختصمين مع شوقى. فوضعوا قصيدته فى نهاية  
البرنامج، ولما وصلوا إليها اعتذر رئيس اللجنة عن عدم  
إلقائها، نظرًا إلى أن الوقت المحدد للاحتفال، قد انتهى، فنشر  
شوقى قصيدته فى الصحف وأضاف إليها هذين البيتين :

إن يفت أمس منبر القول شعرى إن لى الذئب الذى لن يزولا  
جل عن مشد سوى الدهر يلقيه على الغابرين جيلًا فجيلًا

ولما مات حافظ إبراهيم. حزن شوقى وتوقع أن أجله قد  
دنا. فقد حدث عندما مات الإمام الشيخ سعد عبده، أن  
وقف على قبره سبعة من الشعراء وتبأ أحد الأدباء بأن من  
وقفوا على القبر سيموتون بحسب ترتيب إلقائهم لتصائدهم.

وكان شوق قد أرسل ثلاثة أبيات لتلق على القبر. فكانت آخر أبيات أنشدت، وكان حافظ آخر من مات منهم. فلما سمع شوق بوفاته جزع. أحس أن منيته قد دنت. وسافر إلى الإسكندرية. وتبارى الكتاب والشعراء في رثاء حافظ. ولم يسمع أحد شيئاً عن مريثة شوق. فحمل عليه بعض الكتاب واتهموه بالغدر وقلة الوفاء. وقالوا إنه يحسد حافظاً حياً وميتاً. بعضهم كتب هذا الكلام. وبعضهم رده في مجالسه، وقد رد شوق عليهم في رثائه لحافظ فقال:

ووددت لو أني فداك من الردى      والكاذبون المرجفون فدائي  
من كل هدام ويبني مجده      بكرائم الأنقاض والأشلاء  
ما حطموك وإنما بك حطموا      من ذا يحطم رفرف الجوزاء  
انظر فانت كأمس شأنك شامخ      في الشرق واسمك أرفع الأسماء  
ولقد مات شوق في نفس العام الذي مات فيه حافظ، وصحت نبوءة الأديب، وفقد الشعراء بحسب ترتيب إلقاء قصائدهم على قبر الإمام، وكان أولهم حفني ناصف وآخرهم شوق..

## ياصديق العمر.. تمهل

إلى أين يا صديق عمري، قف «تمهل» لا تسرع بخطاك  
إلى العالم الآخر. فأنا مازلت هنا، في الدنيا التي عشناها ممّا  
طفلين صغيرين، نسكن في حارة واحدة، ولا سكاد نفترق  
إلا لحظات النوم، وأوقات الدراسة..

ودارت بنا الأيام، وافترقنا. سار في طريق، وسرت في  
طريق آخر، وكنا دائماً على اتصال روحي وفكري. كانت  
أفكارنا تتعارض أحياناً، ولكن مشاعرنا ظلت كما هي. بريئة  
كالطفولة التي جمعتنا، حكيمة كالكهولة التي خطفه منها  
الموت، وتركتني وحدي أبكيه، دون جدوى!

فلن يعود يوسف حلمي إلى الحياة بعدما فارقها، ولو  
ذبحنا قلوبنا أسي عليه.

ولكن كم من يوم طواه الزمن وغل عالقاً بأذهاننا، نابضاً  
في ذاكرتنا، لأن عظمته تتحدى الزمن والنسيان.

إن الأحياء كالأيام. إذا مضى يوم فلن يعود وإذا مات  
إنسان فلن نجده إلا إذا وصلنا نحن إليه..

وكم من أصدقاء فقدناهم، ومازلنا نعيش معهم بالذكرى والحسرة. ويوسف حلمى واحد من هؤلاء لا بالنسبة لى كصديق عرفته منذ سبعة وأربعين عاماً، ولكن بالنسبة إلى كثير ممن عرفوا يوسف صديقاً، ومناضلاً وعبقرياً.

فيوسف حلمى المحامى الذى نعتة الصحف، كان كاتباً يعالج الموضوعات السياسية والفنية، وكان قصاصاً أصاف إلى المكتبة العربية مجموعة من القصص الصغيرة أصدرها من نحو ثلاثين عاماً، وكان أول خريجي معهد التمثيل، وقد رأس جمعية أنصار السلام. وكان ينادى بالمبادئ الاشتراكية قبل قيام الثورة ولم تشغله المهام السياسية والاجتماعية التى اضطلع بها، عن الاهتمام بفرن الغناء، فعمل على إنشاء جمعية أصدقاء سيد درويش، فقد كان مؤمناً بأن هذا الفنان هو أول من استمد إلهامه من الشعب، من طبقاته الكادحة من فئاته المظلومة، من أحداثه الكبرى، من نيله وريفه، وتراثه الحضارى، وأنه الرجل الذى نقل الأغنية من التخت إلى المسرح، ولم يجعلها احتكاراً لخناجر المطربين بل جعل الشعب كله يسمع ويغنى، كانت الأغاني فردية، فصارت جماعية.

وكان في جميع تصرفاته، يعمل بإيمان وقدره، وكم اختلفت معه في رأى أو فكرة، ولكن منطقته في تسويغ آرائه وأفكاره، كان يقنعنى دائماً بأن يوسف حلمى يقول كل ما يعتقد، ويعتقد كل ما يقوله.

\* \* \*

وزاملت يوسف حلمى ونحن في مرحلة الانتقال إلى الصبا، في ممارسة هواياتنا الفنية، فآلفنا جمعية للأدب والتمثيل وكان بين أعضاء هذه الجمعية أحمد حسين المحامى، ومحمود المليجى الممثل ومحمد نزيه الصحفى، وكان للجمعية أصدقاء كثيرون ممن يقيمون خارج القاهرة ومن بينهم الوزير السابق فتحى رضوان.

وكان يوسف يتميز بالجدية والصلابة والرقه أيضاً، لم يكن يتساهل فيها يؤمن بأنه حق، ويدافع عن إيمانه بالكلمة الصريحة، والابتسامة الحلوة ويستعمل عضلاته عند الاقتضاء، فقد كان قوى البنية شجاعاً، يفيض صحة وشباباً وحيوية. وظل كذلك إلى بضع سنوات مضت ثم داهمه المرض الخطير الذى عجز العلم عن أن يجد له دواء إلا الموت،

فحوّله إلى شيخ، ناحل، أصفر، وظل يقاوم المرض بإرادته،  
وتشبهه بالحياة، إلى أن مات بلا رثين، فقد أكلها  
السرطان..

\* \* \*

وكنت أعمل مع يوسف حلمى فى جريدة روز اليوسف  
اليومية، وفى هذه الجريدة تجلت موهبة يوسف الصحفية..  
فكان القراء يقبلون على قراءة تعليقاته القصيرة تحت عنوان  
«همسة» بشغف شديد، وقد شارك فى تبويب الجريدة،  
وإخراجها، وأعطاهما كل طاقته ومواهبه، وتعد هذه الجريدة  
إحدى الدعائم الكبرى فى تفوق صحافتنا مادة، وأسلوباً،  
وإخراجاً.

\* \* \*

وكان يوسف حلمى المحامى، نموذجاً للمثالية فى المحاماة،  
فهو لا يقبل الترافع فى قضية إلا إذا اقتنع بها، وكم رفض  
قضايا عرض عليه أصحابها أتعاباً مغرية لأنه بعدما درسها  
تبين له أنه وهو يترافع عنها، لا يدافع عن حق ولكن يدافع  
عن ظلم.

زرتة في مكتبه ومعى صديق عرض عليه قضية ليرافع فيها، وأخذ القضية وأراد الصديق أن يخرجه ويدفع له مقدم الأتعاب، فرفض، وقال مستفق على الأتعاب إذا اقتنعت بالمرافعة في القضية.

وبعد يومين قال لى صديق إن يوسف حلمى رفض الترافع فى القضية، كان يوسف فى تلك الأيام يعانى أزمة مالية، ولكن أزمته لم تستطع أن تهزم ما قيد به نفسه من مبادئى.

\* \* \*

وقد تزوج يوسف، ولكنه لم ينجب أولادًا، وكان يقدر حياته الزوجية، وكانت زوجته ترى فيه فتى أحلامها، وحبها، وأملها، وقد شاركتة فى جميع أزماته وما أكثرها!

وذات أيام كان يوسف يزور بعض أصدقائه فى الريف، وأصيب بنوبة قلبية، وأتى به أصدقاؤه إلى بيته فى القاهرة .  
محمولا على أيديهم، ولم تكذب زوجته تراه على هذه الصورة، حتى أصابها إغماء لم تنفق منه.. فقد ماتت!

وتحمل يوسف الصدمة بلوعة ولم يتزعزع إيمانه بالله، وظل

إلى آخر لحظة من حياته يبكى شريكة الحياة التي ماتت هلعاً عليه.

\* \* \*

ومنذ ستين تحول الشاب القوى إلى حطام، فقد عانى من مرض السرطان، وهو لا يدري، وكان أطاؤه يشفقون من مصارحته بمرضه القاتل، ولكنه عرف الحقيقة، وحاول أن يهزم المرض واستغل الداء وانتقل من رثة إلى رثة ورغب في السفر إلى الخارج لعله يجد هناك علاجاً ينقذ به حياته التي وقفها خلدمة وطنه وإنسانيته.

ووفرت له الدولة وسائل السفر والعلاج، وقال لأطبائه هل هناك أمل في شفائي؟ وهزوا رؤوسهم، فاصر على أن يعود إلى بلاده التي استمد منها الأمل، ليدفن فيها أمله! وعاد إلى مصر جثة يهدمها المرض وتحركها الكبرياء، وعندما قرأت نبأ نعيه في الصحف، لم أستطع أن أذهب لأشيع جنازته، فقد كنت مشغولاً بتشيع جنازة أخرى هي جنازك!

ياصديق عمري إلى أين؟ تمهل.. فإزال في أفكارك

ومشاعرك ما تحتاج إليه الحياة.

ولكنها حكمة الله إذا لم تستطع رؤوسنا أن تفهمها، فإن  
رؤوسنا لا تعجز عن الانحناء خشوعاً لها.. فلنحن جميعاً  
رؤوسنا ونخضع!

### في الفن.. تقليد!

يبدو أن الحديث عن الشعر التقليدي، والشعر الجديد،  
لا يريد أن ينتهي، فما زلنا نجد كثيراً من الذين يهتمون  
بالحركة الفكرية يصرون على إسباغ ميزة التجديد على بعض  
من ينظمون الكلمة بشكل خاص، وإطلاق صفة التقليد على  
من ينظمون الكلمة بشكل آخر والشعر فن..

وليس في الفن تقليد، فالفن جديد دائماً، وقد تعيش  
لوحة أو قصيدة، أو معزوفة موسيقية مرت عليها آلاف  
الأعوام، في حين ماتت الأعمال التي حاول أصحابها أن  
يبتكروا لها قوالب، وخطوطاً. ومناهج حديثة.. ولماذا؟ هل  
الفن ينفر من الجديد؟ كلا ولكن الذي يحدث هو أن  
الداعين إلى تجديد الأساليب ليسوا فنانيين، وإنما هم علماء في

الفن. ويفرهم علمهم بأن يتولوا التجربة الجديدة بأنفسهم. فيخفقوا، تحقق التجربة معهم. فالفن ليس علمًا. ولكنه مهبة تمتد منها العلم. وكل المحاولات الناجحة في مختلف الفنون، فرضت وجودها لأن وراءها فنًا. أما غير الناجحة فهي المحاولات التي قام بها علماء نعوزهم المهبة الفنية الأصلية.

والعملة الفنية إما أن تكون سهلة فتداولها، أو صعبة فنشق في الحصول عليها. أما إذا كانت عملة لا يتداولها أحد بسهولة، أو صعوبة، فهي ليست فنًا. وإن ارتفعت مئات الأمرات مؤكدة أنها عملة جديدة. فمقياس صحة العملة أن تشتري بها شيئًا. فما الذي نشتره بالفن الصادق؟.. إننا نشترى الانفعال، ورعشة الشاعر، وإشراق الذهن في التأملات. فكل ما لا يثير انفعالنا.. وتأملاتنا، وهزنا من أعماقنا، ليس بفن. قد يكون علمًا، مذهبًا فلسفيًا، معادلة رياضية.. ولا عيب أن يكون كذلك، وإنما العيب أن يصر صاحب النظرية العلمية على أن يسمى نظريته قصيدة، أو تمثالًا، أو لحناً موسيقيًا.

إن الفن فعل، وصوت، ولا بد لكي نوقن بالفعل من أن

يكون له واقع . . ولا بد لكى نوقن بالصوت من أن يكون له  
صدى.

والأشكال والأساليب الفنية لا يمكن أن تخضع للقواعد  
والمناهج، وإنما هى تتبع من ذات الفنان، فتعبر عن  
شخصيته.

والعمل الفنى لا يعيش إذا لم تكن له شخصية تميزه عن  
الأعمال الفنية الأخرى وإن تقارب معها فى اللون والنسق.  
ولا ينبغي أن نقف فى وجه المحاولات للتجديد فى  
الأشكال الفنية جميعاً. وعندما يوجد الفنان الذى يرسم هذه  
الأشكال فإنه سيفرض وجوده بأعماله الفنية، وليس بالمذكرات  
التفسيرية التى يشرح بها هذه الأعمال!

## الكاريكاتير... علمنى!

عرفت الكاريكاتير وأنا طفل صغير. عرفته فى مجلة  
اللطائف المصورة، وكانت على ما أظن المحلة المصرية الوحيدة  
التي تنشر الصور والرسوم الرمزية فى ذلك الحين. وكانت تنشر

فكاهات أيضاً. . وقد استطعت أن أفهم الصور ولكنى لم أستطع أن أفهم الرسوم ولا أن أضحك من الفكاهات! فهذه الرسوم، أو الصور الكاريكاتيرية كانت شيئاً بعيداً جداً عن فن الكاريكاتير. كانت أشبه بالوشم الذى يحفره الغجر فى جباه الفلاحين وأذرعهم ليحلب لهم الحظ وطول العمر... وهو يرمز إلى صور للحمام والعصافير والسماك... وقد رأيت إجراءات الوشم بعينى.. كانت الغجرية ترسم الحماة مثلاً بالفحم فوق الصدغ أو الذراع ثم تضع فى النار مساراً وبعد أن يصبح المسار قطعة من النار تغرزه فى خطوط الحماة التى رسمتها بالفحم، وتحفر الخطوط بالمسار، ثم تغطى الحفر بسائل أخضر، أو أزرق أو سائل فى لون الكوبيا! كان كاريكاتير مجلة اللطائف المصورة مشوهاً مثل هذا الوشم، وكلما رأيته أحسست أن مسار الغجرية الهامى فى النار ينفرس فى صدغى وذراعى!

وكانت المجلة تنشر صورها الكاريكاتيرية داخل إطار. وتضع فى الإطار كلمات تشير إلى محتويات الصورة بالتفصيل. فتكتب فى رسم الطربوش كلمة «طربوش»! وفى رسم الطرطور كلمة «طرطور»...

وتحت الإطار عبارات تشرح ما في الصورة من فن...  
ونكتة... ولا فن في الصورة، ولا نكتة بطبيعة الحال...  
وتستهل الشرح بكلمة اعتذار للشخص موضوع الكاريكاتير...  
وتؤكد أنها لا تقصد برسمه أن تبهينه، أو تحقره، أو تثير حوله  
الغبار... وإنما هي مجرد دعابة بريئة!

## كاريكاتور علمنى!

وذات يوم وقع في يدي، لأول مرة، نسخة من مجلة  
الكشكول، وكان فيها صورة كاريكاتيرية على عرض صفحتين  
كاملتين، وكانت الصورة تمثل سعد زغلول زعيم الأمة ورئيس  
الوزارة وحوله الوزراء في هيئة «زفة».. وقد ارتدى نسيم باشا  
السروال الإسكندران وأخذ يرقص البلدى هو والوزراء جميعاً  
يتقدمهم سعد زغلول... وفي يد كل منهم آلة من آلات  
الموسيق... فهذا يحمل الرق، وهذا يحمل النقرزان، وهذا  
يحمل العود، وهذا يرفع بضمه دكة في الهواء، وهذا يضع على  
صدره القانون أو البيانو... وهذا يتمنطق ببطلة كبيرة، وهذا  
ينفخ في مزماره... وهي صورة ناطقة معبرة تكاد تسمع فيها،

زين الآلات، وصوت المزمار، ودق الطبول!

وكان الزعماء والحكام في نظر الناس آهة مرهوبة.. كنا  
نصورهم في قم لا تصل إليها أنفاس العباد. إلا بالهتاف  
والدعاء والتسبيح.. ولا تصغى إليها أذان البشر إلا لتلقى  
الأوامر والنواهي.

وكانت صورهم تبعث الخشية والفرع.. وكانت مواكبهم  
تثير الخوف والتوقير..

وقد علمنى هذا الكاريكاتير أن الزعماء والحكام ناس  
عاديون يجوز عليهم ما يجوز على سائر الناس من نقد، وتهكم  
وسخرية، وأنهم لا يثيرون الحب والكراهية ليس إلا وإنما هم  
أيضا يثيرون الابتسام والضحك والقهقهة!

وبرغم أنى كنت أحب سعد زغلول وأتمسك له فقد  
أعجبت بالكاريكاتير الذى نال من هيئته، وشعرت بأنه فتح  
منافذ عقلى وجعل لى إدراكًا ووعيًا..

وقد عرفت فيما بعد أن هذا الكاريكاتير بريشة «سانتيس»  
وهو فنان إسباني اسمه «جان سانتيس» أقام فى مصر فترة  
طويلة.. واتفق مع جريدة الكشكول على أن يخصها وحدها

برسومه. وكانت الكشكول لسان حال المعارضين لسعد  
زغلول.

وغميت أن أرى «سانتيس» ولكن هذه الأمنية لم تتحقق،  
فقد مات سانتيس من أعوام قليلة مضت، دون أن أراه.

### البقال الرومي

ومنذ مدة ذهبت إلى مجلة «روز اليوسف» لزيارة الأستاذ  
التابعي، وكنت أحمل له رسالة من شخص تربطه بي وبه  
صلة القرابة، ووجدت عنده بقالا رومياً.. وكان البقال يجلس  
أمام التابعي، وقد وضع كلتا يديه فوق زجاج المكتب، وكنا  
في أول الشهر فظننته جاء ليأخذ حساب الشهر أو يطالب  
بحساب الشهر.. وعندما رأني رمقني بنظرة ساخرة وتراجع  
بكرسيه إلى الوراء، وأطبق شفتيه على ابتسامته أو كلمة لا  
أدري!

ولما انتهت مقابلي للتابعي، زحف البقال بكرسيه إلى  
المكتب استعداداً لمراجعة الحساب مع التابعي!  
ودارت الأيام، واشتغلت في مجلة روز اليوسف. وكنت

أرى هذا البقال داخلا من غرفة، وخارجًا من غرفة، وفي خطواته نشاط وضجيج. وكان دائمًا عارى الساعدين متجههم الوجه، رأسه أصلع ليس فيه شعر وملاحة أيضًا صلعاء.. ليس فيها نبض ولا تعبير.. عيناه مفتوحتان، وفه مغلق، وأذنه مرهفة.. إذا ضحك قهقه ثم زم شفثيه بسرعة كأنما تذكر شيئًا يمنعه من أن يضحك!

والتقيت بهذا البقال بعد ذلك في «آخر ساعة» ثم في دار «أخبار اليوم»! وتعاملت معه أنا وسائر القراء.. كنا نأخذ منه أجمل أصناف الضحك والسخرية والتهكم... نأخذ منه هذا الكاريكاتير النابض بالحركة.. حتى ليخيل إليك أن الصور تقفز وتثب. وتطير في الهواء! هذا الذي حسبته بقالا عندما رأيته أول مرة.. لم يكن إلا الفنان «صاروخان»!

وقد جاء مصر من سنوات طويلة. ولم يتركها يومًا واحدًا. وعثر عليه التابعي، ودفع به إلى طريق الكاريكاتير فثبى فيه بخطوات عملاق. وقد ظل طيلة هذه السنوات يقدم صور ساستنا وحكامنا. ويختار لهم الملامح والقسمات التي تعبر عن فكرة الكاريكاتير، إن ريشة صاروخان لم تضع ملامح

ساستنا وحدهم بل وضعت كثيرًا من ملامح السياسة المصرية  
نفسها زهاء ثلاثين عامًا!

وقد حاول صاروخان طيلة هذه السنوات أن يظفر  
بالجنسية المصرية، فكانت العقبات توضع في طريقه.. ولم يجرؤ  
أحد على منحه الجنسية المصرية.. فقد كان متهمًا بأنه عدو  
السرائي، وعدو الإنجليز، وعدو الوفد، وعدو خصوم الوفد...  
ثم اتهم بأنه ضالع مع الشيوعيين!

وأخيرًا، وفي عهد الثورة استطاع صاروخان أو الكسندر  
صاروخان الشاب الأرمني أن يظفر بالجنسية المصرية. بعدما  
أصبح شيخًا في الستين من عمره!

## ابن البلد...

وفي عام ١٩٣٣ كنا جماعة من الشبان نكره صدق (باشا)  
ونتحمس للوفد بكل ما فينا من تعصب واندفاع. وكان  
صدق (باشا) رئيسًا للوزارة وقد استعمل في حكمه كل  
أساليب الضغط والتنكيل وصب غضبه على الصحافة فكان  
يغلق عشرات الصحف بجرة قلم. وسوق أصحابها ومحرريها إلى

السجون بتهمة العيب في الذات الملكية.. وكان مجرد توجيه هذه التهمة إلى شخص كفيلا بسجنه على الأقل رهن التحقيق!

وأصدر أحد الشبان الوفديين مجلة تنطق بلسان الشباب الوفدى. وكانت المجلة تحاول تقليد روز اليوسف في أسلوبها الساخر.. وكان ينقصها أن تقلد صاروخان!

وفي أحد الأيام جاء صاحب امتياز المجلة إلى النسادى السعدى وهو يتلهل فرحاً ومعه بضعة رسومات، وعرضها على الموجودين، فأعجبوا بها وأجمعوا على أنها مثل صور صاروخان... وقال صاحب الامتياز إن هذه الصور لشاب يقلد صاروخان أحسن تقليد... وعرفنا أن اسمه المختصر «رخا» واسمه الكامل محمد عبد المنعم رخا. وقال إن رخا شخص موهوب لم يضع وقته في تكملة الدراسة، واشتغل بالرسم الكاريكاتيرى وظهرت صور رخا. وأعجب بها القراء. وكان هدف رخا محاكاة صاروخان فهو ينقل الملامح كما يرسمها صاروخان، ويرسم حركة يده في الرسم والتعبير.

ورسم رخا صورة لصدقي باشا، وكتب فيها بحروف دقيقة

عبارات تناولت الملك فؤاد وثار الملك فؤاد، وقدم رخا إلى المحاكمة ودخل السجن، وأمضى فيه أربع سنوات.. وكنا مشفقين عليه من أن ينسى السجن موهبته في الرسم... وخرج رخا من السجن... وإذا به ينسى فعلا موهبته في تقليد صاروخان! وإذا السجن الذى أنساه تقليد غيره يذكره بنفسه فيهديه إلى موهبته الأصلية الكامنة فيه، موهبة الفنان الخالق المبتكر... وخرج إلى الشارع فلق ابن البلد... وبت البلد... وعاش فيهما، وعاشا فيه.. فصور بنت البلد بالبرقع والملاية اللف، والجمال الذى يريد أن يقول نعم، ولا يستطيع أن يقول غير «لا»! وصور ابن البلد مجلبابه البسيط النظيف ودكائه الفطرى، وكفاحه، ونبضات قلبه، وخلجات نفسه.. بل استطاع أن يصور نبرة صوته... هذا الصوت المبحوح من طول ما صاح. وشكا، وهتف!

لقد سجن رخا في يوم ٦ يونية من عام ١٩٣٢. وهو يوم ميلاده في الحياة. كما تثبته شهادة الميلاد... وكان أيضًا يوم ميلاده، كفنان... لهذا هذا اليوم صارت لرخا شخصيته الفنية الطاغية...